١

الساعة السادسة فجرًا، وبينما تطلع شمس الصبح وتستعد الطير لتلزم تسبيحها.

وبينما تدق أجراس الحياة في النصف الشمالي من هذا العالم، داعيةً كل أراضيه للنهوض... والاستمرار.

كنت أنا في تلك الزاوية الحقيرة الغير معروفة أختنق.....وأرتجف.

ترى؟

كيف سيمضي هذا اليوم، هل سأستطيع مرة أخرى أن أتغلب على صراعات الوجود بداخلي؟

في هذه الأثناء تتزايد دقات الأجراس حدة، وكأنها تجبر كل اللذين قرروا عدم المحاولة، على النهوض.

نهضت أنا أيضًا مع كل الأحياء، ليس لأحيا ولكن فقط لأمضي وأُهدَر.

بلا رغبة، بلا هدف وبلا أي معنى.

مجرد فراغ يكبر أكثر كل يوم.

وكأنني نهر قد أرهقه الضجر، فعاد يهدر نفسه كل يوم ولكن، بلا أسى.....

لم يعد تقبل الأيام صعبًا، بل لم يعد أي شيء صعبًا.

كمن أخبروه عن نهاية القصة، فما عاد قادرًا على التأثر بأحداثها.

حضرت كوب القهوة المعتاد، وشغلت الأغنية التي اخترتها في الليلة الماضية فقط كروتين يومي معتاد.

وإلا فلا يمكن للموسيقى أن تؤدي غرضًا في وسط جنازة.

انهيت روتين الصباح، وبدأت بالسعي وراء أهدافي المزعومة، عملية تعليمية ممتازة، جسد صحي، عقل لامع!!

عملت عليها كلها، وبجهد عظيم كمن يسعى حقًّا للمجد!!

إذًا ،ها قد وصلنا إلى نهاية المسرحية لهذا اليوم.

مع رغبة أكبر وأعظم في الاعتزال... للأبد.

مرحبا يا رفيقي الخالد، مرحبا من جديد.....

أعتقد الآن أنني قمت بأكثر أخطائي استحقاقًا عندما تخليت عنك.

ولازلت أسميه خطأً لأن قواميسنا لازالت تعتبر التخلي خطأ لا رجعة منه.

ولكن بالنسبة لقاموسي الخاص فإنه أكبر معروف قدمته لنفسي.

نعم، أعيش للآن عذاب التخلي عن الذات، لقد تركت فيني فراغا كبيرا لا أستطيع ملأه بأي شكل من الأشكال.

فراغًا يجعلني أحيانًا..... بلا روح.....

وكما أن النسيان صورة من صور الحرية كما يقول جبران خليل جبران.

فإنني أدركت أن لوحة " الإنسان" لا تكتمل إلا بألوانٍ من ألم التخلي.

ثم إن التخلي عن الذات صورة عظيمة من صور الحكمة.

نعم ياصديقي :

لقد وصلت معك إلى أقصى مراحل ضعفي وقلة حيلتي، حاولت كثيرًا أن نُشفى معا، لكنك كنت تسحبني إلى الهاوية كل ما شارفت الوصول إلى القمة.

ولذلك، كان خلاصي الوحيد هو التخلي عنك، أن أجعلك تموت وحيدًا وأنجو بنفسي.

وكما في مقولة أخرى لجبران خليل جبران

" وأفهم الآن أن سعادتي تكمن في التخلي عن المزيد، لا الحصول على المزيد"

لأن التعلق هو البذرة الأولى للضعف، والاستسلام.....

الآن ياصديقي أكتب لك رسالتي هذه كوداعٍ أخير، راضية بحمل عبئ هذا الفراغ داخلي.

سيمتلأ هذا الفراغ يومًا بشيء أجمل، وأكثر ابهارًا.

ربما بأحلام جديدة ،بذوق موسيقي مختلف، بخبرات وتجارب مختلفة، وربما أيضًا بشعور أعظم بالاستحقاق.

لقد وجدت الأمل بعدك يا رفيقي، ولذلك كان قرار التخلي أعظم تضحية قدمتها لنفسي.

وداعًا ،ولكن هذه المرة..... وداعًا لكل عمري معك.

وأهلًا بعمرٍ جديد.

٣

تدفقت سيول آلامي –

نحو جرف لأحلامي.

وفاتها حلم وحيد –

كان في الآفاق باقي.

حتى إذا حان الكرى -

وانطفئت شمس الصباحات

اشتعلت نجمة –

في أعنان السماوات.

حدثتها سائلا لها –

أما كانت أحلامي بين ثناياكِ!!

أما كانت محفوظة-

في الليالي تحت زواياكِ!

إذًا لماذا؟ -

لماذا طالها الأسى الدامي؟

تراءى لي أنها تبسمت -

وشعشع حينها نور المكرمات.

حتى ترائي لي بين ثنايا نورها -

حلمٌ من الأحلامِ.

سائلتها بلهفة مسجونٍ –

تراءت له أفق انعتاقِ.

عجبًا عجبًا!! –

إنها لأعظم الآمالِ!

قالت بحكمة وروية –

اصبر وصابر في دُجَى الآلامِ.

حتى إذا طالت مأساة الليالي -

أشرقت بعدها مسرات الصباحاتِ.

ما كان للحلم أن تجرفه المآسي -

وماكان للصبح أن تسرقه الليالي.

سيأتي الصبح حتما –

كما أن الليل لا بد آتى.

ليل يعقبه نهار، ونهار يعقبه ليل، والإنسان لايزال هو الإنسان.

إذًا ،مافائدة هذا الإفراط في العيش، وهذه الأيام الكثيرة جدا، إن كنا نحن سنبقى نحن منذ مجيئنا حتى ذهابنا!!

وهل كان ثبات الهوية الفردية للأشخاص مقومًا من مقومات العيش!!

فإن كان الكوكب برمته مستمرٌّ في الدوران، وإن كانت السماء نفسها لا تثبت على حال، وإن كانت الشمس تحب أن تختفي في وقت ما، وإن كان القمر يفضل أن يغير من شكله مع استمرار الأيام.

إذًا ،لماذا أثبت أنا بشكل واحد كإنسان بلا أي تغيير، أنا لا أزال أنا، اليوم وغدًا وحتى السنة القادمة!!

من الطبيعي جدًّا في هذا العالم الواسع أن أغير أفكاري كل يوم.

من الطبيعي أن أكون اليوم كاتبًا وغدًا لاعب كرة قدم.

لست مجبرًا على الإلتزام بقرار أخذته في وقت ما وبعقلية وظروف مختلفة عمَّا أنا عليه الآن.

لم أُخلَق حجرًا ،خلقت من طين، وقابلية التشكيل من خصائص الطين الطبيعية.

ثم إن من أكثر الأفكار اللتي كانت ولازالت تثير اهتمامي كل يوم هي اتساع هذا العالم.

العالم واسع ومليء أكثر حتى مما نعتقد.

ولا يدرك شيئًا من هذا الاتساع إلَّا الرحالة بين المدن، وصفحات الكتب.

ولذلك ، فإن اصرار الإنسان على أن يُكَوّنَ هوية ثابته لنفسه، ماهو إلَّا جهل عظيم منه بحدود هذا العالم.

سيبقى سجينًا في حدود مشددة الحراسة، بينما العالم الحقيقي لا حدود له.

إذًا، ماهي الهوية اللتي أتحدث عنها؟

هل هي الدين، أم الأخلاق، أو حتى القيم؟؟

هل من المعقول أن يغير المرء دينه وأخلاقه كل بضعة سنوات؟؟

بل إن الدين والقيم والأخلاق هم تكوين الإنسان وأساس بنائه، وان فسد البناء فسد الإنسان، ولذلك فإن هذا البناء هو من أكثر الأمور حساسية في تكوين الإنسان وإن صلح البناء صلحت الحياة.

ولا علاقة لهذا البناء بالهوية، البناء قالب أما الهوية فهي محتويات هذا القالب، ومهما كان المحتوى فذلك لن يؤثر في جمالية القالب بشكل كبير.

الهوية هي الأفكار، الشغف، الهوايات.

الهوية هي نظرة الإنسان لدنياه، ورغباته الدنيوية البحتة.

ولذلك فإن أي إنسان يحتاج إلى تجديد هويته كل فترة بما يتناسب مع تكوين قالبه.
وإلَّا فإنه سيعتاد لدرجة تسلب منه الحياة، وتعميه عن الشكل الحقيقي للقالب الخاص به.

وكما في اقتباسٍ لوليام شكسبير
" نحن نعرف ما نحن عليه ، ولكن ليس ما قد نكون عليه."

وإن تشبث الإنسان بهويته اليوم، ربما لن يستطيع تحمل العواصف الشديدة للغد، وربما سينكسر قالبه للأبد.

٥

كان الوقت زُلفةً، أو ما بعد الزُّلفة.

ورائحة الموت تنتشر قي جميع أنحاء الغرفة، وذلك المسكين يستلقي في سريره مختنقًا جاهلًا لسبب اختناقه.

يتوسل إلى عقله أن ينام، ويتوسل إلى قدميه أن تتوقفا عن الارتجاف بلا سبب يُذكَر!!

حتى بدأت روحه تتجمد، وماعاد قادرًا على الشعور بأنفاس الحياة.

وصل اختناقه إلى ذروته، وتوقفت قدماه عن الحركة أخيرًا.

تجمد في مكانه كجثة..

وشعر بالموت يبتعد عنه دون أن يكمل مهمته، تاركًا إياه نصف ميت، ونصف حي.

انتظر وقتًا طويلًا جدًّا، متأملًّا أن يعود الموت ليكمل ما تركه ناقصًا، لكنه لم يعد.

وبقي هو هكذا تحت الليل جثة لم يعد بوسعها التنفس.

ولكن ،ماذا بعد؟

ماذا إن لم يعد الموت غدًا أو بعد غد؟

هل سيبقى مستلقيًا على سريره مختنقًا ينتظر الموت ليجده أخيرًا؟

سيأتي الصبح بعد، وسيحتفل العالم أجمع بالحياة ليوم آخر، أو ربما لأيام أخرى.

إذًا لماذا عليه هو أن يرضى بنصف حياة؟

في هذه اللحظة قرر أنه يريد أن يحظى بحياة كاملة مثل الجميع.

وبدأ في محاولة تحريك يديه، كان الأمر سهلًا، وبدأت تغمره السعادة، لكنه عندما حاول تحريك قدميه لم يستطع.

وكان مستوى اختناقه يزداد، لكنه أبى أن يستسلم.

سحب نفسه إلى طرف السرير حتى سقط على الأرض، لم تتحرك قدماه بعد، ولكنه لازال مصرًّا، كان يريد أن يصل إلى باب شرفته.

زحف على الأرض حتى وصل إليها، لكن مستوى اختناقه كان مستمرًّا في الزيادة حتى ازرقت أطرافه، ولم يستطع مد يده ليدفع الباب ويخرج إلى هواء شرفته.

ارتطم رأسه بالأرض وسقطت يده إلى جانبه ولكن، كان للقدر رأي آخر، وماكان الله ليخذل عبدًا أبى أن يستسلم.

ارتطمت رياح قوية بباب الشرفة حتى فتحته، وتدفق الهواء النقي إلى رئتيه حتى استقام ووقف مرة أخرى.

ولم يحد نفسه إلَّا ممتلئًا بالحياة من جديد.

ماذا عن الغربة يا صديقي؟ هل كانت غربة الروح عذرًا كافيًا لنعيش لاجئين بقية عمرنا، لا وطن يؤوينا، ولا وطنية تغذي شعورنا.

ينتابني أحيانا شعور قوي بالهرب، بالتسلخ مني ومن هويتي ومنطقتي الجفرافية.

بالهرب إلى حيث يمكنني صنع هوية جديدة، ووطن جديد.

لا أعلم إن كانت الفكرة ستنفذ يومًا ما، أعتقد أنني قريبة جدًّا من تنفيذها..... ربما.

الأشخاص ،الأماكن ،وحتى الحياة.....

كلها بعيدة جدًّا عن ما يقال عنه موطن الروح، روحي غريبة جدًّا عن حياتي هذه، جدًّا.

لكنني أدركت مؤخرًا أن هذه الروح المعذبة من فرط الغربة، غير قابلة للتوطن أبدًا، ملولة، ساخطة.....

إذًا ماذا، وحتى الهجرة لا يمكنها أن تحل كارثة كهذه.

ماذا عن الحياة بأكملها، الحياة اللتي أصبحت مكررة بشكل مرعب، كلهم نسخ، وكل الأراضي مطبوعة عن أراضي أخرى.

هل هنالك حل لهذه المعضلة غير الموت؟ الموت اللذي لا أعلم متى يأتي، ولا أتيقن عن مصيري بعده.....

هل هنالك حل لهذا الخجل اللذي تمكن من هذه الروح تمكنًا مخيفًا!!

هل للإنسان أن يبدل موطنه ويتسلخ من نفسه وهو في مكانه لم يتحرك.

هل للإنسان أن يعلم روحه الألفة؟. أن يحقنها بمشاعر الوطنية؟

إذًا، كيف!!!!

إنها الثانية بهرةً، ومنذ وقتٍ طويل لم أستيقظ حتى هذا الوقت.

فقد جرت العادة أن أنام طواعية، أو ربما أستهلك بعض المنومات.

لم تأتيني الشجاعة منذ فترة لأبقى مستيقظة خصوصًا في الأوقات بعد منتصف الليل.

لم تكن لدي الشجاعة لأواجه تعذيب عقلي لي عندما تنام الكرة الأرضية أجمع.

وحدي لأبكي في زاوية حقيرة من زوايا شخصي، ووحدي لأجرب معاناة أن تكون إنسانًا لا أي شيءٍ آخر.....!

ولكن؛ وعندما يجرب الإنسان شعور أن لا يكون إنسانًا، بل شيئا كأي شيء فارغ آخر؛ يدرك حينها قيمة أن يكون إنسانًا.

المشاعر والأفكار الإنسانية حتى بتقلباتها العنيفة ستبقى نعمة الإنسان العظمى.

حتى هذا الجسد المكون من لحم وعظم لا يتحمل الفراغ، بل يبدأ بالإنهيار مع أول لحظات الخواء والفراغ.

وكما في اقتباس لستيفان زفايغ في روايته لاعب الشطرنج :

" لا شيء يعذب النفس البشرية أكثر من الفراغ"

الرواية اللتي جسدت معنًى عظيمًا لذلك السجين اللذي ارهقه الفراغ حتى قضى كل فترة حبسه يلعب الشطرنج برقعة صنعها على أرضية الزنزانة!

وبعد ذلك هزم أول شخص يلعب معه، بطل العالم في الشطرنج!!

لم تكن غايته احتراف الشطرنج، كانت غايته اشغال نفسه حتى لا يقتله الفراغ، والشطرنج كانت الوسيلة الوحيدة المتاحة له.

نعم، لهذه الدرجة تكره النفس البشرية الفراغ ولا تستطيع العيش معه.

نحن مخلوقون لنمتلأ عقولًا وأرواحًا في آن واحد، حتى وإن كان ذلك مفرطًا حد الأذى، لكنه بالتأكيد يؤهلنا لأمر عظيم ما بشكل أو بآخر.

وفي اقتباس آخر؛ لجبران خليل جبران :

" ومن لم يرَ مؤنسًا من ذاته مات قانطًا، لأن الحياة تنبثق من داخل الإنسان، ولن تجيء مما يحيط به"

يتعلم الإنسان في نقطة ما من حياته أن لايهرب من نفسه، لأنه إن فعل؛ سيفقد حينها إنسانيته وبعدها الحياة بأكملها.

٨

أزهر العمر كما لم تشتهي يومًا حدائقنا
وصبت أمطار السماء كما لم ترد أراضينا
فتلك رياض الفؤاد خضراءَ سهلةً
كما لم تنطق يومًا أمانينا
وتلك سماءُ الوجودِ ساحرةٌ
كما لم ترَ يومًا مرائينا
أتلك عطايا الإله نحمدها
أم أنها موبقاتٌ لأقدارٍ ستقسونا
هل نسرق الأيامَ مِنَّا خلسةً
أم نبقى على حذرٍ سينجينا
أم هل تُعاشُ الحياة على شاهقٍ قلقٍ
همًّا واضطرابًا تنهارُ معهُ مساعينا
بل إنَّ أعمارنا أسيادٌ عزيزةٌ
تمضي ولا تأبه ساعةً بمآسينا
بل لا يُهدِرُ العمر إلى سيد ألِقٌ
لم يلمس الورد قلقًا لشوكةٍ لا تؤذينا

سلمى
مارس ٢٠٢٣

بعد أيامٍ كأنها أعوام، في ليلة هادئة حد الخوف، وتحت ضرب البرق يمنة ويسرة، وصوت الرعد يشق هدوء الليل بكل ثقة حتى يزيد ذلك الليل وحشة.

وبينما أنا أمشي وحدي في شوارع فارغة حتى من بقعة ضوء، لا آبه بطقوس الوحدة اللتي تمارسها مدينتنا؛ حتى لمحت شخصًا مألوف الملامح، وبعد أن اقتربت أدركت أنها فتاة بان في كل شيء فيها اليأس الشديد وانعدام الأمل، بدءًا من مشيتها حتى ملامح وجهها.

تقاطعت طرقاتنا ثم سألتها عن اسمها لأنني حين ذاك كنت شبه متأكدة أنني أعرفها حق المعرفة.

ابتسمت في وجهي ابتسامة أسًى، وردت قائلة :

وهل ينسى الإنسان نفسه بهذه السهولة!!

أنا يا صاحبتي أنتِ، ولكنني آتي من ماضٍ قريب لأبحث عنكِ مجددًا.

توقفت برهةً ،ثم عدت لمخاطبتها فسألتها:

ولماذا مجددًا والآن؟

أجابت قائلةً :

لأنني أعلم أنني سأجدك وسط عواصف المدينة مجددًا، وبين طقوس الوحدة في أضعف حالة يصل إليها الإنسان؛ حينها فقط أستطيع العودة مجددًا، لأرتاح من تشردي المؤلم بين صفحات الماضي القريب.

أجبتها بضحكة خفيفة :

أخطأتي الظن هذه المرة، لي الآن قلبٌ لا يأبه بمواسم الهجرة والخريف، ولا حتى بكل طقوس هذه المدينة أو حتى بوحشة الوحدة؛ ولا أنوي أبدًا استعادة نفسي بقلبها القلق الهش من الماضي.

ثم إن هذه المدينة بكل مافيها، وهذا الحاضر بكل أحداثه؛ هو كل ما أريد أن أعيشه وأعيش فيه.

" لا ينضج أي شيء دون أن يحترق، حتى الإنسان"

عندما نخرج إلى هذه الدنيا من بطون أمهاتنا نخرج فارغين، لا فكرة لنا عن هذا العالم.

نكبر كل يوم ونكتسب أفكاراً وخبراتٍ جديدة، بدءًا من تعلم المشي واللغة، وصولًا إلى تحقيق الذات؛ المرحلة اللتي لا يصل إليها إلَّا قلة قليل.

يقف الكثير منَّا حول شعلات النار، لا يصله منها إلى لفحة، وتبقى أفكاره عن المعاناة الإنسانية أنها هذه اللفحة، لتجد إنسانيته وفكره متوقفة عند حدٍّ معين، لا يمكنه تجاوزها حتى إن أراد، وذلك قدره الموكل إليه.

أما عن آخرين، اللذين رمي بهم إلى داخل النيران، ولم يعد لديهم خيارٌ إلّا الاحتراق، تجدهم في وسط النيران يعملون جاهدين حتى لا يفقدوا أملهم في العيش، ومن كل معاني الموت يتعلمون الأمل، ومن كل معاني السخط يتعلمون الصبر، يحترقون حتى تنضج أنفسهم، ويخرجون من بين تلك النيران بأجساد مشوهة نعم، لكن بإنسانية كاملة، وإيمان عظيم برب السماء.

هؤلاء كانت كذا أقدارهم، وإن رضت نفوسهم بهذا، أخذهم القدر إلى منازل عظيمة.

نعم، هذه هي الحياة، أقدار مكتوبة، وإن جئنا بأصحاب اللفحات لنضعهم وسط النيران سيموتون احتراقًا.

وإن جئنا باللذين كان الاحتراق قدرهم لنضعهم حول شعلات النار، ستموت أرواحهم ليعيشوا فارغين.

جميعنا نعاني، البعض تلسعه النار ولا تحرقه لأنه مخلوق بجسد وروح لا تتحملان إلَّا اللسع.

وفي قوله تعالى (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا..)

وأن يؤمن الإنسان بالرحمة الإلهية والعدل الإلهي، فذلك قمة الإحسان للنفس.

قد يلسع المرء ليس إلَّا، لكنه بقلة صبره يموت منها حتى دون احتراق، ظنًّا منه أنه يحترق.

وقد يحترق المرء، لكنه بقلة صبره يموت ويبقى جسدًا مشوهًا، بينما لو صبر على ابتلاءاته ورضي بأقداره لوصل إلى تلك المرحلة اللتي يدرك فيها أن الاحتراق نعمة وفضيلة.

ثم إن هذه الحياة تمر بالتهوين والرضا والإيمان، فلن نواجه فيها إلَّا ما هو لنا، ولن يأتينا إلا ما كان من نصيبنا.

وفي اقتباس لمحمد حسن علوان :

" ما جادت به السماء لا ترده الأرض".

قبل سنة تمامًا من الآن، وبين جدران مستشفى الصحة النفسية،وفي الأول من شوال شعرت أن شوَّال هذه المرة أتى دون عيد، ودون حسِّ المعايدات، حينها فقط آمنت أنه لا يعرف قيمة الأيَّام السعيدة إلَّا من لم يستطع في يومٍ ما أن يعيشها.

.....

أما قبل :

إلي.

أما بعد :

فإن عودة شوَّال كل سنة أمر حتمي ربما، لكن ولا نحن ولا أعيادنا متأكدون من أننا سنعود كلَّ عام.

العيد شعيرة قلبية، وليست أيامًا ولا أزمانًا.

لا يأتي العيد في الثلاثة أيام الأولى من شوال، لكننا نزرع بذوره في رمضان داخل أرواحنا، فيشاء الله وينبت الزرع مع غرَّةِ شعبان.

أما عن شوَّالَ الماضي، فشاء الله أن يأتي دون عيد بالنسبة لي، ربما لأن ترتبتي لم تكن خصبةً بما فيه الكفاية لينبت فيها أي زرع.

حتى وجدت نفسي أستقبل شعبان بين جدران المصحات النفسية، وأمنيتي الوحيدة حينها أن أنطق تلك الكلمات السحرية لعائلتي الصغيرة – أمي وأبي إخوتي – " كل عام وانتوا بخير".

تمنيت حينها أن أكون فعلًا بخير.

ولذلك أبعث إليكِ اليوم هذه الرسالة يا صديقتي لأذكرك أننا أفضلُ حالًا اليوم.

لقد نبت زرعُ رمضان بفضل الله ورحمته، ووزعنا الحلوى على عائلتنا الصغيرة مع أحرِّ التهاني.

عيدٌ سعيد يا رفيقتي، وتهانينا الحارَّة لك على كل هذه الجهود اللتي تكللت بالنجاح في نهاية الأمر، وها قد شهدتي شوالًا آخر يحمل عيدَهُ معه والحمد لله على كامل عطائه.

كل عامٍ وأنتِ بخير.

"إن واقع الحياة أقوى من أية خطة يضعها عقل محدود" – علي الوردي

.....

أما قبل :

فإن هذا النص فردي بحت، خاص بي، لا يناسب أيًّا من قراءه، وغير قابلٍ للاقتباس.

أما بعد :

فسأبدأ نصي هذا بتعريف الإيمان، الإيمان بالفكرة والهدف والحلم :

أن تؤمن بفكرة ما، أو هدف معين، يعني أنك بالتأكيد مؤمن بقدرتك على تحقيق ما تؤمن به.

أما عن نفسي، فدائمًا ما آمنت أني طبيبة، منذ عرفت نفسي حتى هذه اللحظة، عرفت نفسي كطبيبة ولا شيء آخر.

حتى أن أساس تكويني اعتمد على الأساسيات الشخصية و َالأخلاقية لهذه المهنة.

الإنسانية ،التعاطف ،الشغف للعلم والمعرفة، السعي لبلوغ الإتقان المثالي للعمل.

كل ذلك كان نابعًا من فكرة أنني طبيبة بالتأكيد، ولا تنقصني إلَّا بضع سنوات من الدراسة والتعلم، ثم جملة

" يوصى بمنحه درجة البكالوريوس في الطب والجراحة".

ولكن ،كان لله في أقداره حكمة أخرى.

ولم يصبح الطب سهلًا بالنسبة لي، أنا اللتي عرفت نفسي دائمًا كطبيبة، لم تصمد صلابة إيماني في هذا الميدان.

سقطت في أعماق روحي، وغاب عقلي عن العالم لفترة ليست بالقصيرة.

وعندما استيقظت بعد فترة، كانت خيبة أمل تلك الطفلة اللتي عرفت نفسها كطبيبة هي أول الدمار اللذي رأيته.

هنا بالذات ،فقدت الإيمان، وفقدت الكثير من نفسي معه.

كانت كل النصائح في تلك الفترة متمحورة حول فكرة التخلي، التخلي عن نفسي اللتي لم اعرف سواها.

اخبرني الأطباء أن هشاشتي لن تتحمل هذا الميدان، وأن عمري سيضيع في اللاشيء.

ويشهد الله أنني حاولت كثيرًا أن أبتعد، لكن في كل مرة تتساقط علي الإشارات الربانية، بأن الأمر لا زال يستحق محاولة أخرى، وبأن التخلي عن حلم عظيم كهذا لا يجب أن يكون بهذه السهولة.

هنا بالذات قررت أن آخذ بالنصيحة المتكررة، قررت أن أتخلى، ليس عن الطب لكن عن كل ما دونه.

قررت أن أتغير أنا لأناسب الحياة اللتي لا أرضى أن أعيش غيرها.

وإن كانت نفسي هشة لا تناسب هذا الميدان، فلتصبح صلبة إذًا.

وفعلًا، قطعت مشوارًا طويلًا جدًّا، وصلت إلى مرحلة من الصلابة لم أتوقع أن أصل إليها من قبل.

وبنيت جدارًا حول روحي، لكن لازالت صعوبات هذا الميدان تضرب فيه بكل قوتها حتى تصدع.

ورغم ذلك، أعلم جيدًا أن هذا الجدار لا يمكن أن يهدم، وأنني سأعيد ترميمه ما حييت.

وفي النهاية، لا يضعنا الله في طرق غير طرقنا، ولا يكلفنا أكثر مما نتحمل.

وجودي هنا إلى الآن يعني أنني لازلت في الطريق الصحيح بإذن الله.

"أنا شخص مثقف، أقرأ شتى الكتب الرائعة، لكني لا أستطيع أبدأ أن أحدد الإتجاه، وما الذي أريده في الواقع، وهل أعيش أم أنتحر! "

اقتباس عظيم جدًّا لأنطون تشيخوف، ذكرني بكل تلك اللحظات اللتي يكون الموت عندها خيارًا حقيقيًّا يحتار المرء بينه وبين الحياة.

الإختيار بين الموت والحياة ليس كأي اختيار آخر، مهما بلغت ثقافتك وعلمك وذكائك وإيمانك وروحانيتك.

ما دام الموت قد أصبح في لحظة ما خيارًا حقيقيّا بالنسبة لك، ذلك يعني أنك حينها لا تملك على نفسك أدنى سلطة، مجرَّدٌ من نفسك بالكامل، وفي الغالب ستختار الموت في نهاية الأمر.

لا أقول عن نفسي أنني بالغة الثقافة والعلم، لم أكن سوى طفلة في السادسة عشرة، لكنني أعرف حق المعرفة أن ذكائي لم يكن شيئًا يُستهان به، وأنني كنت أعيشُ في بيتِ علمٍ ودين، وأعرف أحكام ديننا أكثر من معرفتي لإسمي نفسه، وكان من المستحيل أن يصبح الموتُ خيارًا حقيقيًّا لي، لكنه أصبح، وفي لحظةٍ ما جردتني عن نفسي تمامًا.

صباحات كثيرة جدًّا وجدت نفسي فيها أبحث في كل زوايا هذا العالم عن خيارات الحياة، وليالٍ كثيرة يحثت فيها كثيرًا عن كل ما عرفته فيني من ذكاء وعلم ودين.

لم تكن لحظة طيش ولم يكن اختياري للموت إحدى عشر مرةً في عُمري هذا شيئًا سهلًا.

لا تذهبُ عن عقلي إطلاقًا تلك الليالي بين زوايا المصحة النفسية.

كأنني تجردت من إنسانيتي بالكامل، وجدت نفسي أبحث في كل زوايا هذا البناء عن كل خيارات الموت.

وفوق ذلك السرير الأبيض، يمسك بأطراف جسدي ثلاثة أشخاص.

أتذكر أنني قاومت كثيرًا جدًّا، تخبطت كثيرًا، لكن في النهاية نجحوا في غرز ثلاث إبر أو ربما أكثر ، ولم أدرك شيئًا حولي بعدها.

ولكنني بعد أن خرجت إلى العالم مرة أخرى من بين زوايا هذا البناء، أدركت أنني في الحقيقة لم أكن أدرك أي شيءٍ حولي طوال الثلاث سنوات السابقة.

كان كلُّ شيءٍ مدمرًّا، لم أجد شيئًا إلَّا بقايا حياة، وبقايا إنسان.....

لكنني وقفت أمام كل هذا الدمار بثباتٍ كبيرٍ لدرجةٍ لم أتوقعها أبدًا.

كان عليَّ بناءُ كلِّ شيءٍ من جديد، علاقات جديدة، أحلام جديدة، حياة تعليمية، مستقبل، علاقات عائلية، عادات، صحة، أفكار.

كان عليَّ أن أبني إنسانًا من تحت هذا الرماد.

وأعتقد أنني أنهيتُ جزءًا كبيرًا من هذا البناء خلال هذه السنة.

وفي اقتباس آخر لأنطون تشيخوف

" قد لا أملك إنتصارات مُدهشة، لكنني أستطيع إدهاشك بهزائم خرجت منها حيًّا.".

يرجف قلبي باستمرار، في داخلي الأجوف، يضرب يمنة ويسرة على جدران الجسد.

تعبت كل لياليَّ من صوت البكاء، وتعب جسدي من تقيأ وجوده.

رئتان منقبضتان، وجلدٌ يشعر بحرارة النيران تشتعل حوله وعليه.

وكأن كلي وكل ما فيَّ مستاء من وجوده، و مستاء من كونه كان موجودًا في يومٍ ما.

لقد نزفت الجراح حتى جفَّت، ولم يعد هنالك أي ذرة من حياة داخل هذا الجسد.

لكن الأكثر أسفًا، أن أبدو كمن يدعي كل ذلك ليتهرب من الحياة عمدًا.

أن يستمر العالم بمن فيه يمعاملتي بغير حقيقة حالي.

لم يعلم أحدٌ بعد أنني أبحث عن الحياة في كل زاوية، وأنني أحاول التهرب من قدرٍ محتوم بادعاء " العيش" أحيانًا.

لكنني الآن نسيت الحياة بكل طقوسها وأشكالها.

ولا يمكن لأي شخصٍ أن يدَّعي شيئًا لا يعرف عنه شيئًا.

ليلة أخرى من الليالي الهادئة حد الأسى، الشاهدة على حزن الروح العظيم، بعد العديد من الليالي المؤلمة واللتي أبى أن يجف في لحظاتها المدمع.

لا أظن أنني وصلت إلى قاع أبعد من هذا القاع، ولا أظن أنني واجهت ألمًا أبشع من هذا الألم من قبل.

الألم اللذي عرفت معه أن الجنون أحيانًا نعمة للمرء، وأن غياب العقل من أعظم الرحمات الإلهية.

لا أؤمن بأن العلة اشتدت، ولكنني أجزم أنني وصلت إلى مرحلة جيدة جدا من الوعي الإنساني، مرحلة أصبحت أدرك فيها ماهية الألم وحتى شدته.

مرحلة لم يعد الموت فيها خيارًا متاحًا.....

نعم، وصلت إلى مرحلة صعبة كادت فيها الحياة أن تنفلت من بين أصابعي، ولن أقول أنني تمسكت،ولكنني دفعت الموت حتى لم يبق لدي خيار إلا البقاء.

حاولت استخدام آليات وقوانين الحياة جميعها لأعود إلى مسار العيش الطبيعي..

ولكنني كنت أختنق أكثر، ولأول مرة في عمري هذا أمد أنا يدي والآخرون ملتفتون إلى جهاتٍ أخرى، وهنا زاد معدل الاختناق أكثر فأكثر، وحتى الدمع قد جف، وأصبحت كل الأشياء والمعارك محبوسة داخل هذه الروح المحدودة المساحة.

اخترت بعدها أن أصمت، وأبقى بين معاركي جنديًّا أمام جيش.

و حينها فقط أصبح مظهري أكثر صلابة.

وكما يقول محمود درويش :

" أصبحت مثل صبار حزين لا يبكي. لأنه يدرك أنه لو بكى مئة عام لن يحتضنه أحد"

هكذا أملت معاركي على شخصي حياة أكثر ألمًا، وأكثر غرابة.

سألت الكثير من الأشخاص عن حيواتهم وأنا أحاول إقناع نفسي بأن الحياة عند الجميع هي نفس الحياة اللتي أعيشها أنا.

ويالللأسف ،حاولت كثيرًا اقناع نفسي أنني أشد ضعفًا من الجميع، ولذلك فقط أعاني!

الآن أنا لا أختنق، ولا أبالي...

وبعد أن أدركت أنني بمجرد إدارة ظهري للحياة كما يجب أن تعاش وإلتفاتي للحياة كما يجب أن أعيش أنا ستخمد هذه البراكين حتمًا، قررت أن أبدأ طريقي الخاص رغمًا عن هذا الألم.

وكما يقول عبد الرحمن منيف

"المهم الآن أنّ نخرجَ مِن هذا النفق، أن نُداوي جروحنا لِكي نستطيعَ مواصلة الرحلة."

قد يخسرُ المرء كثيرًا في رحلته خصوصًا في بداياتها، لكن الأقوياء فقط من يمتنعون عن رفع راية الاستسلام.

ليس الأمر رفضًا للخسارة، لكن رفع الراية يعني تصريحًا واضحًا بأن رافعها يمتنع عن أي محاولة جديدة.

ولهذا كل حالات الفشل الواضحة لم تكن أسبابها صعوبة المعركة إطلاقًا، بل ضعف الإرادة.

الإنسان ضعيف، ضعيف للغاية، وأول مؤشرات القوة أن يقبل المرء ضعفه، وأنه سيخسر كثيرًا، ويمرض كثيرًا، ويسقط كثيرًا، لكنه في نفس الوقت، يملك دائمًا الإرادة والقدرة على الاستمرار، لأن هذا هو شرع الله في المرء.

أمَّا من أدرك حقيقة نفسه، فلن يعطي ظهره للحياة مهما عظم المصاب.

وأما من أخطأ في قراءة نفسه فأعطاها فوق ما تملك، أو أخذها إلى أقل من قدرها، فإنه سيجلس مُقعدًا فور أن تجرحه شوكة مرمية على قوارع الحياة.

نعم، هذا هو الضعف، أن تفشل في قراءة نفسك وتقدير الأمور في أماكنها الصحيحة، ثم تدير وجهك عن الحياة معنونًا كل ضعفك الشخصي باسمها.

أما عن عنوان القوة وأصلها، فهو الصبر، الصبر حتى على جلل المصاب؛ ثم إن عنوان الصبر هو القوة.

فلا يصبر إلا القوي، اللذي يملك أساسًا نفسيًا لا ينكسر، اللذي يعرف نفسه قبل أن يعرفه الناس.

القوي هو من أصاب في قراءة نفسه، ووضع كل شيء موضعه وقدره المناسب تمامًا، فلم يشعر حتى بشكة الشوكة، وقام فور انزلاقه على الأرض، وصبر على كسره حتى جُبِر.

الأهم أنه لم يتوقف، حتى عندما أوشك على الاستسلام سلَّى نفسه بصحبة الأقوياء امثاله، والقراءة في سير من سبقوه وكانوا أشد قوَّةً منه، وذكَّرَ نفسه أن البلاء لابد زائل، وأن الدنيا لا بد فانية، وأن رضا الله هو جل المراد وكل ما بعده هين، حتى تقوَّى على حياته من جديد بعلو هِمَّة، واستمر في عمره مصلحا مزكيا لنفسه.

فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله، وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان[1]، رواه مسلم